

## ١٩ - سورة مريم

### مكية وآياتها ثمان وتسعون

وقد روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة، أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَيْفَ مَنَعْنَا ۙ وَذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ۙ﴾ ﴿١﴾ ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ بِنَادٍ خَفِيًّا ۙ﴾ ﴿٢﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ۙ وَاسْتَمَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۙ﴾ ﴿٣﴾ ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن دُونِي ۙ وَكَانَتِ امْرَأَتِي غَافِرًا فَهَبْ لِي مِن لَدُنْكَ وَلِيًّا ۙ﴾ ﴿٤﴾ ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنِّي آلٌ يَتَّقُونَ ۙ وَأَجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا ۙ﴾ ﴿٥﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله: ﴿ذكر رحمت ربك﴾ أي هذا ذكر رحمة الله عبده زكريا، وزكريا يمد ويقصر، فراهتان مشهورتان، وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل، وفي «صحيح البخاري» أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده في النجارة، وقوله ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره، حكاه الماوردي، وقال الآخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله، كما قال قتادة في هذه الآية ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾: إن الله يعلم القلب الخفي، ويسمع الصوت الخفي، وقال بعض السلف: قام من الليل عليه السلام وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه بقول خفية: يا رب يا رب يا رب، فقال الله له: ليك ليك ليك ﴿قال رب إني وهن العظم مني﴾ أي ضعفت وخارت القوى ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ أي اضطرم المشيب في السواد. والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة، وقوله: ﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ أي ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردني قط فيما سألتك، وقوله: ﴿وإني خفت الموالى من ورائي﴾، قال مجاهد وقتادة والسدي: أراد بالموالي العصابة، ووجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده ليسوسهم بنبوته ما يوحي إليه، فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من ورائتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من ورائة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم هذا وجه. (الثاني) أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالا ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهدي شيء في الدنيا. (الثالث) أنه قد ثبت في «الصحيحين» من غير وجه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركناه صدقة». وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «نحن معشر الأنبياء لا نورث». وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿فهب لي من لدنك ولياً﴾ يرثني ﴿علي ميراث النبوة، ولهذا قال: ﴿ويرث من آل يعقوب﴾ كقوله: ﴿ويرث سليمان داود﴾ أي في النبوة. إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها ورائة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبت ما صح في الحديث: «نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة»، قال مجاهد: كان ورائته علماً، وقال الحسن: يرث نبوته وعلمه، وقال السدي: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب، وعن أبي صالح في قوله ﴿ويرثني ويرث من آل يعقوب﴾ قال: يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة، وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره. وقوله: ﴿واجعله رب رضيعاً﴾ أي مرضياً عندك وعند

خلقك، تحبه وتحميه إلى خلقك في دينه وخلقه .

﴿بِذِكْرِي إنا نُنشِركَ بِمَنِّكَ أَنْتُمْ بَحِينٌ لَمْ تَجْعَلْ لُو مِنْ قَبْلِ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ .

هذا الكلام يتضمن محذوفاً، وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه فقيل له: ﴿يا زكريا إنا نيشرك بكلام اسمه يحيى﴾ ، كما قال تعالى: ﴿هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء • فناده الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يشرك يحيى مصداقاً بكلمة من الله وسيداً وحضوراً ونبياً من الصالحين﴾ ، وقوله: ﴿لم نجعل له من قبل سمياً﴾ . قال قتادة: أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم<sup>(١)</sup> ، وقال مجاهد: ﴿لم نجعل له من قبل سمياً﴾ أي شبيهاً، أخذه من معنى قوله: ﴿هل تعلم له سمياً؟ أي شبيهاً، وقال ابن عباس: أي لم تلد العواقر قبله مثله، وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما، ولهذا قال: ﴿أبشروني على أن مني الكبر فبم نبشرون﴾ مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة .

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّكَ بِكُورِي لِي عَلِيمٌ وَسَكَتِي أَسْرَأُ عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيمٌ هَيِّئْ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلِ وَلَدِكَ نَبِيًّا ﴿٩﴾﴾ .

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل، وبشر بالولد ففرح فرحاً شديداً وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها<sup>(٢)</sup> ، ومع أنه قد كبر وعتا، أي عسا عظمه، ونحل، ولم يبق فيه لقاح ولا جماع، والعرب تقول للعود إذا يبس: عتا، وقال مجاهد: ﴿عتياً﴾ يعني قحول العظم، وقال ابن عباس وغيره: عتياً يعني الكبر، والظاهر أنه أخص من الكبر، ﴿قال﴾ أي الملك مجيباً لزكريا عما استعجب منه ﴿كذلك قال ربك هو علي هين﴾ أي إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها، ﴿هين﴾ أي يسير سهل على الله، ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه فقال: ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾ ، كما قال تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ .

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَاتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام أنه ﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أي علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿رب أوني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ ، ﴿قال آيتك﴾ أي علامتك ﴿أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويًا﴾ أي أن يحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال، وأنت صحيح سوي، من غير مرض ولا علة، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة . قال زيد بن أسلم: كان يقرأ ويسبح ولا

(١) واختار هذا القول ابن جرير رحمه الله .

(٢) ذكر السهيلي: أن امرأته اسمها (إشاع بنت فاقوذ)، وهي أخت حنة بنت فاقوذ، قاله الطبري، وحنة هي أم مريم . وقال العتبي: امرأة زكريا هي (إشاع بنت عمران)، فعلى هذا القول يكون يحيى ابن خالة عيسى على الحقيقة، وعلى القول الأول يكون ابن خالة أمه، وفي حديث الإسراء قال عليه السلام: «فلقيت ابني الخالة يحيى وعيسى»، وهذا شاهد للقول الأول .

يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة، وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ثلاث ليال سوي﴾ أي متتابعات<sup>(١)</sup>. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ثلاث ليال سوي﴾ من غير خرس، وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿الآرمن﴾ أي إشارة، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ أي الذي بشر فيه بالولد ﴿فأوحى إليهم﴾ أي أشار، إشارة خفية سريعة ﴿أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ أي موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله، شكراً لله على ما أولاه. قال مجاهد ﴿فأوحى إليهم﴾ أي أشار<sup>(٢)</sup>. وقال مجاهد: أي كتب لهم في الأرض.

﴿يَبْحَثُ خِزْيُ الْعَسْكَانِ بَقْوَةً وَآيَاتِنَا لِنُكَلِّمَ مَيْمِ ۝١٧ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَبَيَّنًا ۝١٨ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٩ رَسَلْنَا عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ يَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝٢٠﴾

وهذا أيضاً تضمن مخلوقاً، تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به وهو يحيى عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب وهو (التوراة) التي كانوا يتدارسونها بينهم، وقد كان ستاً إذ ذاك صغيراً، فلهذا نوه بذكره وبما أنعم به عليه وعلى والديه، فقال ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ أي تعلم الكتاب بقوة أي بجهد وحرص واجتهاد ﴿وآيتناه الحكم صبياً﴾ أي الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه، وهو صغير حدث. قال عبد الله بن المبارك: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خلقنا. وقوله: ﴿وحناناً من لدننا﴾ قال ابن عباس: يقول ورحمة من عندنا. وزاد قتادة: رحم الله بها زكريا، وقال مجاهد: ﴿وحناناً من لدننا﴾ وتعطفاً من ربه عليه، وقال عكرمة: محبة عليه، وقال عطاء بن أبي رباح: تعظيماً من لدنا، والظاهر من السياق أن قوله ﴿وحناناً﴾ معطوف على قوله ﴿وآيتناه الحكم صبياً﴾ أي وآيتناه الحكم وحناناً، وزكاة أي وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل كما تقول العرب: حنت الناقة على ولدها، وحن الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة، وفي المسند للإمام أحمد، عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يبقى رجل في النار ينادي ألف ستة يا حنان يا منان». وقد يثنى كما قال طرفة:

أبا منذر أفنيت فاستيق بعضنا  
حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وقوله تعالى: ﴿وزكاً﴾ معطوف على ﴿وحناناً﴾ فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب، وقال قتادة: الزكاة: العمل الصالح، وقال الضحاك: العمل الصالح الزكي، وقال ابن عباس: ﴿وزكاً﴾ قال: بركة ﴿وكان تقياً﴾ طاهراً فلم يذنب، وقوله ﴿وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبة عقوقهما قولاً وفعلًا، أمراً ونهياً، ولهذا قال: ﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾، ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ أي له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال. عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا، وما ينبي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى<sup>(٣)</sup>»، وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، أن الحسن قال: إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي أنت خير مني، فقال له الآخر: أنت خير مني، فقال له عيسى: أنت خير مني سلمت على نفسي وسلم الله عليك، فمرف الله فضلها.

(١) القول الأول عن ابن عباس وعن الجمهور أصح كما في آل عمران ﴿قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا، وأذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾.

(٢) وهذا القول أرجح، وبه قال وهب وقاتة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد، قال ابن كثير: وفي إسناده ضعف.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أُمَّهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنَّهُ آمُرٌ بِالرَّحْمَنِ بِنْدِكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّي لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بِمَيْمِنًا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْدٍ وَنَحْنُكَمُ : إِنَّهُ لَمَنَّانٌ وَرَحْمَةٌ مِنَّا وَكَاتَ أَمْرًا مُفْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ .

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً، مباركاً، عطف بذكر قصة مريم في إيجاد ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة، لتقارب ما بينهما في المعنى، لئيدل عباده على قدرته وعظيمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر، فقال: ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران، وأنها نذرتها محررة، أي تخدم مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك <sup>(١)</sup> ﴿فتقبلها ربيها بقبول حسن وأنبأها نبأاً حسناً﴾ ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات، المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل والدؤوب، وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم الذي يرجعون إليه في دينهم، ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أتى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾، فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء كما تقدم بيانه في سورة آل عمران، فلما أراد الله تعالى - وله الحكمة والحجة البالغة - أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام، أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام ﴿انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ أي اعتزلتهم، وتحت عنهم وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس؛ عن ابن عباس، قال: إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه، وما صرفهم عنه إلا قبل ربك ﴿فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ قال: خرجت مريم مكاناً شرقياً فصلوا قبل مطلع الشمس <sup>(٢)</sup>. وعنه قال: إني لأعلم خلق الله لأني شيء اتخذت النصراني المشرق قبلة، لقول الله تعالى: ﴿فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ واتخذوا ميلاد عيسى قبلة، وقال قتادة: ﴿مكاناً شرقياً﴾ شامعاً متنجياً، وقوله ﴿فانتبذت من أهلها حجاباً﴾ أي استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي على صورة إنسان تام كامل. قال مجاهد والضحاك ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾. يعني جبرائيل عليه السلام، وهذا هو ظاهر القرآن، قال تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين﴾ على قلبك لتكون من المنذرين، ﴿قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ أي لما تبدى لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب خافته وظنت أنه يريد لها على نفسها، فقالت ﴿إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ أي إن كنت تخاف الله تذكيراً له بالله، قال أبو وائل: قد علمت أن النبي ذو نهية، حين قالت: ﴿إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ قال إنما أنا رسول ربك ﴿أي فقال لها الملك سجيناً لها ومزيبلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها: لست مما تظنين، ولكنني رسول ربك أي بعثني الله إليك﴾ لأهب لك غلاماً زكياً ﴿قالت أنى يكون لي غلام﴾ أي فتعجبت مريم من هذا، وقالت كيف يكون لي غلام، أي على أي صفة يوجد هذا

(١) ذكر السهيلي: أن القرآن لم يذكر امرأة باسمها إلا (مريم ابنة عمران) فإنه ذكر اسمها في نحو من ثلاثين موضعاً، لحكمة ذكرها بعض الأشياخ، وذكر أن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في ملاء ولا يتبدلون أسماءهن، بل يكنون عن الزوجة بالعرس والأهل والعيال، ولم يصونوا أسماء الإماء عن الذكر، فصرح الله باسم مريم لما قالت النصراني في مريم تأكيداً لعبوديتها، وإجراء الكلام على عادة العرب من ذكر إمامها، وتكرار ذكر عيسى منسوباً إلى أمه لشعر القلوب بنفي أبوة الله وبتزاعة أمه الطاهرة عن مقالة اليهود.

(٢) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وهذه هي العلة في توجه النصراني جهة المشرق.

الغلام مني ولست بذات زوج، ولا يتصور مني الفجور. ولهذا قالت: ﴿ولم يمسنني بشر ولم أك بغياً﴾ والبيهي هي الزانية، ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين﴾ أي فقال لها الملك مجيئاً لها عما سألت: إن الله قد قال إنه سيوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك بعل ولا يوجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، ولهذا قال: ﴿ولنجعله آية للناس﴾ أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالفهم ﴿ورحمة منا﴾ أي ونجعل هذا الغلام رحمة من الله، نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿إن الله يشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ أي يدعو إلى عبادة ربه في مهده وكهولته. قال ابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: قالت مريم عليها السلام: كنت إذا خلوت حدثنني عيسى وكلمني وهو في بطني وإذا كنت مع الناس سبّح في بطني وكبّر. وقوله: ﴿وكان أمراً مقضياً﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدره ومشيته، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النسخ في فرجها، كما قال تعالى: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾، وقال: ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا﴾، قال محمد بن إسحاق ﴿وكان أمراً مقضياً﴾: أي إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد، واختار هذا أيضاً ابن جرير في تفسيره ولم يحك غيره، والله أعلم.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قُبْرًا ۗ فَلَمَّاهَا الْمَخَاشِ إِنَّ جَنحَ أَخْوَفَ قَالَتْ بَيْتِي مَثَقَلُ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا نَسِيًّا﴾ ﴿٢٢﴾.

يقول تعالى مخبراً عن مريم، أنها لما قال لها جبريل ما قال، استسلمت لقضاء الله تعالى، فذكر غير واحد من علماء السلف، أن الملك وهو جبرائيل عليه السلام عند ذلك نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد، بإذن الله تعالى، فلما حملت به ضاقت ذرعاً، ولم تدرك ماذا تقول للناس، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به، غير أنها أفشت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا، وذلك أن زكريا عليه السلام كان قد سأل الله الولد فأجيب إلى ذلك، فحملت امرأته، فدخلت عليها مريم، فقامت إليها فاعتنقتها وقالت: أشعرت يا مريم أني حبلى؟ فقالت لها مريم: وهل علمت أيضاً أني حبلى؟ وذكرت لها شأنها، وما كان من خبرها، وكانوا بيت إيمان وتصديق، قال مالك رحمه الله: بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام ابنا خالة، وكان حملهما جميعاً معاً، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إنني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك، قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام، لأن الله جعله يحيى الموتى وبيروء الأكمه والأبرص<sup>(١)</sup>. ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر، وقال عكرمة: ثمانية أشهر، وقال ابن جريج: عن ابن عباس، وسئل عن حمل مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت<sup>(٢)</sup>.

والمشهور الظاهر - والله على كل شيء قدير - أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن، ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل بها، وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس، يقال له يوسف النجار، فلما رأى ثقل بطنها وكبره أنكر ذلك من أمرها، ثم صرفه ما يعلم من برائتها ونزاهتها ودينها وعبادتها، ثم تأمل ما هي فيه فجعل أمرها يجوس في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عرض لها في القول، فقال: يا مريم إنني سائلك عن أمر فلا تعجلي علي، قالت: وما هو؟ قال: هل

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) قال ابن كثير: هذا القول عن ابن عباس غريب، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى: ﴿فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً فأجاءها المخاض﴾ فالفاء للتعقيب ولكن تعقيب كل شيء بحسبه.

يكون فط شجر من غير حب؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم، وفهمت ما أشار إليه، أما قولك هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر، فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر، وهل يكون ولد من غير أب، فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم، فصدقها، وسلم لها حالها، ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة، انتبذت منهم مكاناً قصباً، أي قاصياً منهم بعيداً عنهم لئلا تراهم ولا يروها. قال محمد بن إسحاق: فلما حملت به وملاّت قلنّها ورجعت، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحّم، وتغير اللون، حتى فطر لسانها، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا وشعاع الحديث في بني إسرائيل، فقالوا: إنما صاحبها يوسف، ولم يكن معها في الكنيسة غيره، وتوارت من الناس، واتخذت من دونهم حجاباً، فلا يراها أحد ولا تراه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي فاضطرها والجاها إلى جذع النخلة، في المكان الذي نَحَتْ إليه. وقد اختلفوا فيه، فقال السدي: كان شرقي محرابها الذي تصلي فيه من بيت المقدس، وقال وهب بن منبه: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس، في قرية يقال لها بيت لحم، وهذا هو المشهور، الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا يشك فيه النصارى أنه بيت لحم، وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مَتَّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسِياً نَسِياً﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحتمل الناس أمرها فيه على السداد ولا يصدقونها في خيرها، وبعدما كانت عندهم عايذة ناسكة تصيح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت ﴿يَا لَيْتَنِي مَتَّ قَبْلَ هَذَا﴾ أي قبل هذا الحمل ﴿كُنتُ نَسِياً نَسِياً﴾ أي لم أخلق ولم أكن شيئاً قاله ابن عباس، وقال قتادة ﴿كُنتُ نَسِياً نَسِياً﴾ أي شيئاً لا يحرف ولا يذكر، ولا يدري الناس من أنا. وقال ابن زيد: لم أكن شيئاً قط، وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهي عن تمني الموت إلا عند الفتنة عند قوله: ﴿وَفُوتِي مُسْلِماً وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلْأَخْرَقِي مَدَّ جَمَلٌ رَّيْبِي تَحْتِي سَرِيًّا ۚ﴾ ﴿وَهَزِيْٓ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ مُنْقِطٌ عَلَيْكَ رَطْبٌ رَّيْبًا جَنِيًّا ۚ﴾ ﴿كُلِّي وَاشْرَبِي وَقرِي عَيْبًا فَمِمَّا تَرَىٰ فِي النَّسْرِ أَسْدًا مَّقُولًا ۚ﴾ ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ لِإِسْبَا ۚ﴾ ﴿٢١﴾.

اختلف المفسرون في المراد بذلك من هو؟ فقال ابن عباس: ﴿ناداها من تحتها﴾ جبريل<sup>(١)</sup>، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها، أي ناداها من أسفل الوادي، وقال مجاهد ﴿ناداها من تحتها﴾ قال: عيسى ابن مريم، وقال الحسن: هو ابنها<sup>(٢)</sup>، قال: أو لم تسمع الله يقول ﴿أشارت إليه﴾ وقوله ﴿إن لا تحزني﴾ أي ناداها قائلاً لا تحزني ﴿قد جعل ريك تحتك سريراً﴾ عن البراء بن عازب، وعن ابن عباس: السري النهر، وقال الضحّاك: هو النهر الصغير بالسريانية، وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز، وقال السدي: هو النهر، واختار هذا القول ابن جرير، وقال آخرون: المراد بالسري عيسى عليه السلام<sup>(٣)</sup>. والقول الأول أظهر، ولهذا قال بعده: ﴿هزي إليك بجذع النخلة﴾ أي وخذي إليك بجذع النخلة، قيل: كانت يابسة قاله ابن عباس، وقيل: ثمرة، والظاهر أنها كانت شجرة، ولكن لم تكن في إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه. ولهذا امتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعاماً وشراباً فقال: ﴿ساقط عليك رطباً جنياً﴾ ﴿ككلي واشربي﴾ وقرى عيباً أي طيبى نفسها، ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة.

(١) وهو قول الضحّاك والسدي وقاتة وسعيد بن جبیر.

(٢) وهو رواية سعيد بن جبیر واختاره ابن جریر.

(٣) وبه قال الحسن والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد، وهو ضعيف والقول الأول أظهر كما قال ابن كثير.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي مهما رأيت من أحد، ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾، المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك، لا أن المراد به القول اللفظي، لئلا ينافي ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾، قال أنس بن مالك في قوله ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ قال: صمتاً، وكذا قال ابن عباس والضحاك، وفي رواية عن أنس: صوماً وصمتاً، والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام. روى ابن إسحاق، عن حارثة قال: كنت عند ابن مسعود فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر فقال: ما شأنك؟ قال أصحابه: حلف أن لا يكلم الناس اليوم. فقال عبد الله بن مسعود: كلم الناس وسلم عليهم، فإن تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها أنها حملت من غير زوج، يعني بذلك مريم عليها السلام، ليكون عذراً لها إذا سئلت<sup>(١)</sup>. وقال عبد الرحمن بن زيد: لما قال عيسى لمريم ﴿لا تحزني﴾ قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي لا ذات زوج ولا مملوكة، أي شيء عذري عند الناس؟ ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نِسِيًّا نَسِيًّا﴾.

﴿فَأَنذَرْتُ الْيَوْمَ أَنَّهُ لَنْ يُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ قَالَ لِي بَعْدَ اللَّهِ مَا تَنصِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي بَيْنَكَ وَأُمَّكِ بَيْنَكَ فَأَنذَرْتُكَ الْيَوْمَ أَنَّهُ لَنْ يُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ قَالَ لِي بَعْدَ اللَّهِ مَا تَنصِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي بَيْنَكَ وَأُمَّكِ بَيْنَكَ فَأَنذَرْتُكَ الْيَوْمَ أَنَّهُ لَنْ يُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ قَالَ لِي بَعْدَ اللَّهِ مَا تَنصِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي بَيْنَكَ وَأُمَّكِ بَيْنَكَ فَأَنذَرْتُكَ الْيَوْمَ أَنَّهُ لَنْ يُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ قَالَ لِي بَعْدَ اللَّهِ مَا تَنصِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي بَيْنَكَ وَأُمَّكِ بَيْنَكَ فَأَنذَرْتُكَ الْيَوْمَ أَنَّهُ لَنْ يُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يوماً ذلك، وأن لا تكلم أحداً من البشر، فإنها ستكفي أمرها ويقام بحجتها، فسلمت لأمر الله عز وجل واستسلمت لفضائه، فأخذت ولدها فأنث به قومها تحمله. فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جداً، وقالوا ﴿يا مريم لقد جئت شيئاً غريباً﴾ أي امرأة عظيماً، ﴿يا أخت هارون﴾ أي يا شبيهة هارون في العبادة، ﴿ما كان أبوك امرأة سوء وما كانت أمك بغياً﴾ أي أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟ قال السدي: قيل لها ﴿يا أخت هارون﴾ أي أخي موسى وكانت من نسله، كما يقال للثميمي: يا أخت تميم، وللمضري: يا أخت مضر، وقيل: نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون<sup>(٢)</sup>، فكانت تقاس به في الزهادة والعبادة. وقد كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحينهم. كما قال الإمام أحمد، عن المغيرة بن شعبه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: رأيت ما تقرأون ﴿يا أخت هارون﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم»<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن جرير، عن قتادة قوله ﴿يا أخت هارون﴾ الآية قال: كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد، ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به، وكان هارون مصلحاً محبباً في عشيرته، وليس بهارون أخي موسى، ولكنه هارون آخر، قال وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفاً كلهم يسمون هارون من بني إسرائيل. وقوله: ﴿فَأَنذَرْتُ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي أنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها هذا صائمة صائمة، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهمين بها ظانين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم ﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾؟ قال

(١) رواه ابن إسحاق وابن أبي حاتم وابن جرير.

(٢) قال السهيلي: هارون رجل من عباد بني إسرائيل المجتهدين كانت مريم تشبه به في اجتهادها، وليس بهارون

أخي موسى بن عمران، فإن بينهما من الدهر الطويل والقرون الماضية والأمم الخالية ما قد عرفه الناس.

(٣) وأخرجه مسلم والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

السدي : لما أشارت إليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها  
﴿قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ أي من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟  
﴿قال إني عبد الله﴾ أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى ويرأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه،  
وقوله : ﴿أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ تيرة لأنه مما نسبت إليه من الفاحشة، قال نوف البكالي : لما قالوا لأمه  
ما قالوا كان يرتضع ثديها، فنزع الثدي من فمه، واتكأ على جنبه الأيسر وقال : ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب  
وجعلني نبياً﴾ إلى قوله : ﴿ما دمت حياً﴾.

وقوله تعالى : ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾، قال مجاهد : وجعلني معلماً للخير، وفي رواية عنه :  
نفاعاً، وقوله : ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ : ﴿واصبر ربك حتى يأتيك  
اليقين﴾. وقوله : ﴿وبرأ بوالدتي﴾ أي وأمرني ببر والدتي، ذكره بعد طاعة ربه لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين  
الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى : ﴿أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير﴾، وقوله : ﴿ولم يجعلني  
جباراً شقياً﴾ أي ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتي فأشقى بذلك، قال سفيان  
الثوري : الجبار الشقي الذي يقتل على الغضب، وقال بعض السلف : لا تجد أحداً عاقباً لوالديه إلا وجدته  
جباراً شقياً، ثم قرأ : ﴿وبرأ بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً﴾. وقوله : ﴿والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت  
ويوم أبعث حياً﴾ إثبات منه لعبوديته لله عز وجل، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا ويموت ويبعث كسائر  
الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿كَذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٢٥﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سَخِرْنَاهُ إِذَا فَرَعْنَا أَمْرًا فَإِنَّمَا  
يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبُّ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٧﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ  
شَهَادَةِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه : ذلك الذي قصصناه عليك من خير عيسى عليه  
السلام ﴿قول الحق الذي فيه يمترون﴾ أي يختلف المبطلون والمخوقون ممن آمن به وكفر به . ولما ذكر تعالى  
أنه خلقه عبداً نبياً نزه نفسه العقدسة، فقال : ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه﴾ أي عما يقول هؤلاء  
الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، أي إذا أراد شيئاً فإنما  
يأمر به فيصير كما يشاء كما قال : ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾،  
وقوله : ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده أن  
أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم، وأمرهم بعبادته فقال ﴿فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أي هذا الذي جنتكم به  
عن الله صراط مستقيم أي قويم من اتبعه رشد وهدى ومن خالفه ضل وغوى، وقوله : ﴿فاختلف الأحزاب من  
بينهم﴾ أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله، وكلمته  
ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة منهم وهم جمهور اليهود عليهم لعائن الله، على أنه ولد زنية،  
وقالوا : كلامه هذا سحر، وقالت طائفة أخرى : إنما تكلم الله، وقال آخرون : بل هو ابن الله، وقال آخرون :  
ثالث ثلاثة، وقال آخرون : بل هو عبد الله ورسوله، وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين، وقد  
روي نحو هذا عن ابن جريج وقادة وغير واحد من السلف والخلف .

وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم أن (قسطنطين) جمعهم في محفل كبير  
من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم، فكان جماعة الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفًا، فاختلَفوا في  
عيسى ابن مريم عليه السلام اختلافًا متباينًا جداً، فقالت كل شُرذمة فيه قولاً، ولم يجتمع على مقالة واحدة  
أكثر من ثلثمائة وثمانية منهم اتفقوا على قول وصححوا عليه فمال إليهم الملك، وكان فيلسوفاً، فقدمهم  
ونصرهم وطرد من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة بل هي الخيانة العظيمة، ووضعوا له كتب القوانين

وشرعوا له أشياء وابتدعوا بدعاً كثيرة، وحرفوا دين المسيح وغيروه، فابتنى لهم حينئذ الكنائس الكبار في مملكته كلها، بلاد الشام والجزيرة والروم، فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثني عشر ألف كنيسة، وقوله: ﴿فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ تهديد ووعد شديد لمن كذب على الله واقتري، وزعم أن له ولداً، ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة، وأجلهم حلماً فإنه الذي لا يعجل على من عصاه، كما جاء في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافهم» وقد قال تعالى: ﴿وكأين من قرية أهلكنا وهي ظالمة ثم أخذتها وإني المصور﴾، وقال تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾، ولهذا قال ههنا ﴿فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ أي يوم القيامة. وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

﴿أَسْمِعْ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْرَارُ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِ الْكُفُورُ الْقَائِمُ مِنَ الْجَهَنَّمَ لَا يَأْتِيهِمْ فِيهَا سَمْعٌ وَلَا يُرْجَعُونَ﴾ (١٩)

يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة: ﴿أسمع بهم وأبصر﴾ أي ما اسمعهم وأبصرهم ﴿يوم يأتوننا﴾ يعني يوم القيامة، ﴿لكن الظالمون اليوم﴾ أي في الدنيا ﴿في ضلال مبين﴾ أي: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا يفهمون ذلك، ثم قال تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ أي أنذر الخلاق يوم الحسرة ﴿إذ قضى الأمر﴾: أي فصل بين أهل الجنة وأهل النار، وصار كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه، ﴿وهم﴾ أي اليوم ﴿في غفلة﴾ عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة ﴿وهم لا يؤمنون﴾ أي: لا يصدقون به. عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال: فيشربون وينظرون ويقولون، نعم هذا الموت، قال: فيقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشربون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال، فيؤمر به فيذبح، قال: ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾، وأشار بيده ثم قال: «أهل الدنيا في غفلة الدنيا»<sup>(١٩)</sup>.

وقال السدي، عن ابن مسعود في قوله ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، أتى بالموت في صورة كبش أملح حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في أهل عليين، ولا في أسفل درجة في الجنة إلا نظر إليه، ثم ينادي مناد: يا أهل النار هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا فلا يبقى أحد في ضحضاح من نار ولا في أسفل درك من جهنم إلا نظر إليه، ثم يذبح بين الجنة والنار، ثم ينادي: يا أهل الجنة هو الخلود أبد الأبد، ويا أهل النار هو الخلود أبد الأبد، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتاً من فرح ماتوا، ويشق أهل النار شققة لو كان أحد ميتاً من شققة ماتوا، فذلك قوله تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر﴾ يقول: إذا ذبح الموت<sup>(٢٠)</sup>. وقال ابن عباس: ﴿يوم الحسرة﴾ من أسماء يوم القيامة، عظمه الله وحذره عباده، وقال عبد الرحمن بن زيد، في قوله ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ قال يوم القيامة، وقرأ:

(١٩) رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري واللفظ له وأخرجه الشيخان عن ابن عمر ولفظهما قريب من ذلك.

(٢٠) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتَ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ ، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس، ولا أحد يدعي ملكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ حَدِيثًا نَبِيًّا ۗ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۗ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ اللَّهِ نُورٌ فَلَتَبِعْتَنِي أَهْلَكَ بِرِجَالِكَ لَعَلِّي صَارَ لَكَ سَوِيًّا ۗ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ إِنْ الشَّيْطَانُ كَانَ لِلرَّحْمَنِ حَسِيبًا ۗ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۗ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي اتل على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، خير إبراهيم خليل الرحمن، وقد كان صديقاً نبياً مع أبيه كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ أي لا يتفكك ولا يدفع عنك ضرراً، ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يقول: وإن كنت من صلبك وتراني أصغر منك، لأنني ولدك، فاعلم أنني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت، ولا اطلعت عليه ولا جاءك ﴿فَاتَّبَعْتَنِي أَهْلَكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب، ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أي لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكَائِهِمْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وقوله ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ أي مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾: أي على شركك وعصيانك لما أمرك به ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يعني فلا يكون لك مولى ولا ناصرأ ولا معيلاً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمور، بل اتبعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿فَزَيْنَ لَهَا الشَّيْطَانُ أَصْحَابُهَا فَمَوَّاهَهُمُ الْجِنَّةَ قَوْمٌ فَلَا إِيمَانَ لَهُمْ لَيْسُوا إِلَّا قَوْمٌ يَمُرُّونَ بِهِمْ لَبِيفًا لِيُكَلِّمَهُمُ الْوَهْلَةَ غَافِلِينَ لَا يُبْصِرُونَ وَلَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَعْقِلُونَ إِلَّا مَا يُحِبُّ الشَّيْطَانُ وَلِيًّا﴾

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ مَنْ آتَاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُكَلِّمُهُمْ لَمَّا لَمْ يَنْفَعُوا لِرَبِّهِمْ شَيْئًا وَكَانُوا رَبِّهِمْ كَافِرِينَ ۗ قَالَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا ۗ وَأَعِزَّنَا لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاؤِ رَبِّي شَقِيًّا ۗ﴾

يقول تعالى مخيراً عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه إنه قال: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ مَنْ آتَاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُكَلِّمُهُمْ لَمَّا لَمْ يَنْفَعُوا لِرَبِّهِمْ شَيْئًا وَكَانُوا رَبِّهِمْ كَافِرِينَ﴾ يعني إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، فانت عن سبها وشتمها وعيها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك، وهو قوله: ﴿لَأَرْجَمَنَّكَ﴾، قاله ابن عباس<sup>(١)</sup>، وقوله: ﴿وَأَهْجَرَنِي حَفِيًّا﴾ قال مجاهد: يعني دهرأ، وقال الحسن البصري: زماناً طويلاً، وقال السدي ﴿وَأَهْجَرَنِي حَفِيًّا﴾ قال: أبدأ. وقال ابن عباس ﴿وَأَهْجَرَنِي حَفِيًّا﴾ قال: سوياً سالماً، قيل أن تصييك مني عقوبة<sup>(٢)</sup>، فعندها قال إبراهيم لأبيه ﴿سلام عليك﴾، كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾، وقال تعالى: ﴿سلام عليكم لا ينصني الجاهلين﴾، ومعنى قول إبراهيم لأبيه ﴿سلام عليك﴾ يعني: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى وذلك لحرمة الأبوة ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾، ولكن سأسال الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفاً، أي في أن هداني لعبادته. وقال قتادة ومجاهد ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال: عوده الإجابة، وقال السدي: الحفي الذي يهتم بأمره، وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما

(١) وقاله أيضاً السدي وابن جرير والضحاك وغيرهم.

(٢) وكذا قال الضحاك وقاتدة وأبو مالك، واختاره ابن جرير.

السلام في قوله: ﴿وَمَا أَهْمُ لِي وَلِوَالِدِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾، وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهلبيهم من المشركين في ابتداء الإسلام، حتى أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية، يعني إلا في هذا القول فلا تأسوا به، ثم بين تعالى أن إبراهيم أفلح عن ذلك ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا مِنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾، وقوله: ﴿وَأَعْتَزَلَكُمْ مِنَ دُونِ اللَّهِ وَادَّهَوَ رَبِّي﴾ أي اجتنبكم وأتبرأ منكم ومن ألهتكم التي تعبدونها من دون الله ﴿وَادَّهَوَ رَبِّي﴾ أي وأعبد ربي وحده لا شريك له، ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيحًا﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿لَمَّا اعْتَزَلْتُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلَّمْنَا جَدًّا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَيَسْعَىٰ لَهُمْ إِنْ كَانَ صِدْقَ عِلْمًا ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، وهب له إسحاق ويعقوب، يعني ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ويعقوب نافلة﴾، وقال: ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾، ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب وهو نص القرآن في سورة البقرة: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعم يد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ ولهذا إنما ذكر ههنا إسحاق ويعقوب، أي جعلنا له نسلًا وعقبًا أنبياء، أقر الله بهم عينه في حياته، ولهذا قال: ﴿وكَلَّمْنَا نَبِيًّا﴾ فلو لم يكن يعقوب عليه السلام قد نبىء في حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه ولذكر ولده يوسف فإنه نبي أيضاً. وقوله: ﴿ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق هليليا﴾، قال ابن عباس: يعني الشئنا الحسن، وقال ابن جرير: إنما قال ﴿هليليا﴾ لأن جميع الملل والأديان يشنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَوْسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَرَأَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا لَمَّا خَرَّ تَبًّا ﴿٥٣﴾﴾

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عطف بذكر الكليم فقال: ﴿وأذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً﴾ بكسر اللام من الإخلاص في العبادة، وقرأ الآخرون بفتحها، بمعنى أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: ﴿إني اصطفيتك على الناس﴾، ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ جمع الله له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار، أولي العزم الخمسة، وهم (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد) صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين، وقوله: ﴿وناديناه من جانب الطور﴾ أي الجانب ﴿الأيمن﴾ من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة، فأراها تلوح فقصدتها فوجدها في جانب الطور الأيمن منه، غريبة عند شاطئ الوادي، فكلمه الله تعالى وناداه وقربه فناجاه. روى ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿وقربناه نجياً﴾ قال: أدني حتى سمع صريف القلم. وقال السدي ﴿وقربناه نجياً﴾ قال: أدخل في السماء فكلم، وعن مجاهد نحوه، وروى ابن أبي حاتم، عن عمرو بن معد يكرب قال: لما قرب الله موسى نجياً بطور سيناء قال: يا موسى إذا خلقت لك قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة تعين على الخير، فلم أخزن عنك من الخير شيئاً، ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئاً، وقوله: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ أي وأجبتنا سؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبياً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردهاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون﴾، وقال: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾، ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد شفاعته في الدنيا أعظم من شفاعته موسى في هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿ووهبنا له من

رحمتنا أخاه هارون نبياً»، قال ابن عباس: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد وهب نبوته له<sup>(١)</sup>.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَكَانَ بِأَمْرِ أَهْلِهِ بِالصَّلَاةِ وَالزُّكْرَةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٢﴾﴾.

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق الوعد. قال ابن جرير، عن سهل بن عفيل: إن (إسماعيل) النبي عليه السلام وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه فيها، فجاء ونسي الرجل فظل به إسماعيل، وبات حتى جاء الرجل من الغد، فقال: ما برحت من ههنا؟ قال: لا، قال: إني نسيت، قال: لم أكن لأبرح حتى تأتيني، فلذلك ﴿كان صادق الوعد﴾، وقد روى أبو داود في «سننه»، عن عبد الله بن أبي الحمصاء قال: بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث فبقيت له عليّ بقية، فوعده أن آتية بها في مكانه ذلك، قال: فنسيت يومي والغد، فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه ذلك فقال لي: «يا فتى لقد شققت عليّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك»، وقال بعضهم: إنما قيل له ﴿صادق الوعد﴾ لأنه قال لأبيه ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ فصدق في ذلك، فصدق الوعد من الصفات الحميدة، كما أن خلفه من الصفات الذميمة، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾، وقال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»<sup>(٢)</sup>، ولما كانت هذه صفات المنافقين، كان التلبس بصددها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً، لا بعد أحداً شيئاً إلا وفى له به، وقد أثنى على أبي العاصم بن الربيع زوج ابنته زينب فقال: «حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي».

وقوله تعالى: ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق لأنه إنما وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة، وقد ثبت في «صحيح مسلم» أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل» وذكر تمام الحديث، فدل على صحة ما قلناه، وقوله: ﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً﴾، هذا أيضاً من الثناء الجميل والصفة الحميدة والخلة السديدة، حيث كان صابراً على طاعة ربه عز وجل، أمراً بها لأهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وامرأه أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ الآية. وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فإن أبته نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضح في وجهه الماء»<sup>(٣)</sup>. وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»<sup>(٤)</sup>.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٤﴾﴾.

ذكر إدريس عليه السلام بالثناء عليه، بأنه كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً. وقد تقدم في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ مرّ به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة. وعن ابن عباس: أن إدريس كان خياطاً فكان لا يفرز إبرة إلا قال سبحان الله، فكان يمسي حين يمسي وليس في الأرض أحد أفضل حملاً

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) الحديث أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

(٤) رواه أبو داود وابن ماجه واللفظ له.

منه، وقال مجاهد في قوله ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى. وقال سفيان، عن مجاهد ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: السماء الرابعة، وقال الحسن وغيره في قوله ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: الجنة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَنَبْنَا إِنَّ لَنَا عَلِيمًا بِإِيمَتِ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا﴾ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى: هؤلاء النبيون، وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء عليهم السلام، استطراد من ذكر الأشخاص إلى الجنس، ﴿الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم﴾ الآية. قال السدي وابن جرير رحمه الله: فالذي عنى به من ذرية آدم (إدريس)، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح (إبراهيم)، والذي عنى به من ذرية إبراهيم (إسحاق ويعقوب وإسماعيل)، والذي عنى به من ذرية إسرائيل (موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم)، قال ابن جرير: ولذلك فرق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو إدريس، فإنه جد نوح، (قلت): هذا هو الأظهر، أن إدريس في عمود نسب نوح عليهما السلام، وقد قيل إنه من أنبياء بني إسرائيل، أخذاً من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، ولم يقل والولد الصالح، كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام، وفي «صحيح البخاري» عن مجاهد: أنه سأل ابن عباس أفي ﴿ص﴾ سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فبهداهم اقتده﴾ فنيكف ممن أمر أن يقتدي بهم، قال وهو منهم يعني داود. وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾ أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة حمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة، والبكي جمع بك فلهاذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعاً لمنوالهم. قال سفيان الثوري قرأ عمر بن الخطاب رضي عنه سورة مريم فسجد وقال: «هذا السجود، فأين البكي؟» يريد البكاء<sup>(١)</sup>.

﴿قَالَ يَا بَدِيعُ خَلْقِ آصَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبِعُوا الصَّلَاةَ فَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكَ قِيَامًا وَإِلَٰهًا مِّن دُونِ رَبِّكَ عَلَيْهِمْ سَلَامٌ﴾ ﴿٥٩﴾

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام، ومن اتبعهم من القائميين بحدود الله وأوامره المؤدبين فرائض الله التاركين لزواجه، ذكر أنه خلف ﴿من بعدهم خلف﴾ أي قرون آخر، ﴿أصاعوا الصلاة﴾، وأقبلوا على شهور الدنيا وملاذعها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غياً، أي خساراً يوم القيامة، وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة ههنا، فقال قائلون: المراد بإضاعتها تركها بالكلية. قاله محمد بن كعب القرظي والسدي واختاره ابن جرير، ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو مشهور عن الإمام أحمد، إلى تكفير تارك الصلاة للحديث: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة»<sup>(٢)</sup>، والحديث الآخر: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»، وليس هذا محل بسط هذه المسألة. وقال الأوزاعي: إنما أصاعوا المواقيت ولو كان تركاً كان كفراً. وقيل لابن مسعود: إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾، ﴿على صلاتهم دائمون﴾، ﴿على صلاتهم يحافظون﴾، قال ابن مسعود: على مواقيتها، قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك، قال: ذلك الكفر، وقال مسروق: لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين، وفي إفراطهن الهلكة، وإفراطهن إضاعتهن عن

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

(٢) الحديث: أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن جابر بلفظ «بين الرجل وبين الشرك والكفر...».

وقتهن، وقال الأوزاعي: قرأ عمر بن عبد العزيز: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة﴾، ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركها ولكن أضاعوا الوقت، وقال مجاهد: ذلك عند قيام الساعة وذهاب صالحي أمة محمد ﷺ ينزو بعضهم على بعض في الأزقة. وقال ابن جرير، عن مجاهد: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾ قال: هم في هذه الأمة، يتركون تراكب الأنعام والحمر في الطرق، لا يخافون الله في السماء، ولا يستحيون من الناس في الأرض. وقال كعب الأحبار: والله إنني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله عز وجل: شرابين للقهوات، تراكين للصلوات، لغابين بالكعبات، رقادين عن العتبات، مفرطين في الغدوات، تراكين للجماعات، قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾، وقال الحسن البصري: عطلوا المساجد ولزموا الضيعات. وقال أبو الأشهب: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المعلفة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة، وإن أعون ما أصنع بالعباد من عبيدي إذا أثر شهوة من شهواته أن أحرمه طاعتي، وقوله: ﴿فسوف يلقون غياً﴾، قال ابن عباس: أي خسراناً، وقال قتادة شراً، وقال عبد الله بن مسعود: ﴿فسوف يلقون غياً﴾ قال: وإد في جهنم بعيد القمر حيث الطعام. وقال الأعمش، عن زياد، عن أبي عياض في قوله: ﴿فسوف يلقون غياً﴾ قال: وإد في جهنم من فيح ودم. وقوله: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ أي إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته ويحسن عقابته ويجعله من ورثة جنة النعيم، ولهذا قال: ﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً﴾ ذلك لأن التوبة تجب ما قبلها، وفي الحديث الآخر: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»<sup>(١)</sup> ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً ولا قبولوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها لأن ذلك ذهب هدراً وترك نسياناً، وذهب مجاناً من كرم الكريم وحلم الحليم، وهذا الاستثناء ههنا كقوله في سورة الفرقان: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ إلى قوله: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ (١١) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا سُلُوفًا﴾ (١٢) ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَائِدَاتُ مَائِدَاتٍ كَتَمَتُ الْهَيْبَةَ مِنَ الْغُلَامِ كَمَا كَتَمَتُ الْهَيْبَةَ مِنَ الْغُلَامِ لَمَّا أَتَوْا بِهَا وَقَمَّاسَاتُ لِحَى الْغُلَامِ أَشَدُّ مِنِّي وَأَقْرَبُ مِنَ الْعُنُقِ وَالْجَنَّةُ فِي هَذِهِ حَتَّى إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ فَسَبَّحُوا الْحَمْدَ لِلَّهِ فِي نِجْوَاتِهِمْ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا سُلُوفًا فِيهَا كَأَنَّ هُمْ لَمَّا تَجَلَّى لَهُمُ الْبُيُوتُ مِنِّي وَقَامُوا فِيهَا أُولَئِكَ وَقَفَى لَهُمْ لَحَى الْعُلَمَاءِ﴾ (١٣)

يقول تعالى: الجنات التي يدخلها التائبون هي ﴿جنات عدن﴾ أي إقامة ﴿التي وعد الرحمن عباده﴾ بظهور الغيب، أي هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم. وقوله: ﴿إنه كان وعده مفعولاً﴾ أي كائناً لا محالة، وقوله ههنا ﴿مأتيًا﴾ أي العباد صائرون إليه وسيأتونه، ومنهم من قال ﴿مأتيًا﴾ بمعنى آتياً، لأن كل ما أتاك فقد أتته، كما تقول العرب: أنت علي خمسون سنة وأتيت علي خمسين سنة كلاهما بمعنى واحد، وقوله: ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾، أي هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد في الدنيا، وقوله ﴿إلا سلاماً﴾ استثناء منقطع، كقوله: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأنيباً﴾ إلا قِيلاً سلاماً سلاماً، وقوله: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشيًا﴾ أي في مثل وقت البكرات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضيتها بأصوات وأنوار، كما قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يتمخطون فيها، ولا يتغوطون، أتيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب

(١) أخرجه ابن ماجه عن ابن مسعود والحكيم الترمذي عن أبي سعيد الخدري.

رجل واحد، يستحون الله بكرة وعشياً<sup>(٦٦)</sup>. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بياب الجنة، في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً<sup>(٦٧)</sup>». وقال الضحاك عن ابن عباس: «ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً». قال: مقادير الليل والنهار. وقال ابن جرير، عن الوليد بن أسلم قال: سألت زهير بن محمد عن قول الله تعالى: «ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً» قال: ليس في الجنة ليل، هم في نور أبداً ولهم مقدار الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب ويفتح الأبواب. وقال قتادة: فيها ساعتان بكرة وعشي، ليس ثم ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور. وقال مجاهد: ليس بكرة ولا عشي، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتبهون في الدنيا. وقوله: «تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً» أي هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله عز وجل في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس، وكما قال تعالى في سورة المؤمنين: «أولئك هم الوارثون» الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون.

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٦﴾ رَبُّكَ الَّذِي عَلَّمَ قُرْآنًا مَجِيدًا ﴿٦٧﴾﴾

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبرائيل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» قال، فنزلت: «وما ننزل إلا بأمر ربك<sup>(٦٦)</sup>». وقال العوفي عن ابن عباس: احتسب جبرائيل عن رسول الله ﷺ، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وحزن، فأثاه جبرائيل وقال: يا محمد «وما ننزل إلا بأمر ربك» الآية. وقوله: «له ما بين أيدينا وما خلفنا»، قيل: المراد ما بين أيدينا أمر الدنيا، وما خلفنا أمر الآخرة «وما بين ذلك» ما بين النسختين، وهذا قول عكرمة ومجاهد والسدي، وقيل «ما بين أيدينا»: ما يستقبل من أمر الآخرة، «وما خلفنا» أي ما مضى من الدنيا، «وما بين ذلك» أي ما بين الدنيا والآخرة، واختاره ابن جرير، والله أعلم. وقوله: «وما كان ربك نسياً»، قال مجاهد والسدي: معناه ما نسيتك ربك، وقد تقدم عنه أن هذه الآية كقولها: «والضحى \* والليل إذا سجى \* ما ودعتك ربك وما قلى»، وعن أبي الدرداء يرفعه قال: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرمه فهو حرام وما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن ينسى شيئاً»، ثم تلا هذه الآية: «وما كان ربك نسياً<sup>(٦٦)</sup>». وقوله: «رب السماوات والأرض وما بينهما» أي خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه، «فاعبه واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً» قال ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شيئاً<sup>(٦٧)</sup>. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه.

﴿وَقَوْلِ الْإِنْسَانِ لَوْ مَا مِثْلُ نَسْفَةِ الْفَجْرِ حَبًّا ﴿٦٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلِ وَلَدٍ بِكَ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ قَوْلِكَ لَنْحَرِيهِمْ وَالصَّابِرِينَ ثُمَّ لَنْحَرِيهِمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنْحَرِيكَ عَلَى الرَّحْمَنِ عِينًا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنْحَرِيكَ أَطْمَ وَالَّذِينَ هُمْ أَزْكَىٰ بِنَاءٍ لَكَ ﴿٧٠﴾﴾

يخبر تعالى عن الإنسان، أنه يتعجب ويستعبد لإعادته بعد موته، كما قال تعالى: «وإن تعجب فعجب

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم ورواه أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التصير ورواه الإمام أحمد.

(٤) رواه ابن أبي حاتم.

(٥) وهو قول مجاهد وقاتادة وسعيد بن جبير وغيرهم.

قولهم انذا كنا تراباً اننا لفي خلق جديد»، وقال: «او لم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين • وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم»، وقال مهنا: «ويقول الانسان انذا ما مت لسوف اخرج حياً • او لا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً»، يستدل تعالى بالهداية على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الانسان ولم يك شيئاً، أفلا يعيده وقد صار شيئاً؟ كما قال تعالى: «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه»، وفي الصحيح: «يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني، وأذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني، أما تكذبه إياي فقله لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون علي من آخره، وأما أذاه إياي فقله: إن لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»<sup>(١)</sup>. وقوله: «فوربك لحشرهم والشياطين» أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة، أنه لا يذ أن يحشرهم جميعاً، وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله، «ثم لحضرتهم حول جهنم جثياً»، قال ابن عباس: يعني فعدواً كقولهم: «هورى كل أمة جاثية» وقال السدي في قوله «جثياً» يعني قياماً، وروي عن ابن مسعود مثله. وقوله: «ثم لننزعن من كل شيعة» يعني من كل أمة قاله مجاهد، «أبهم أشد على الرحمن حثياً» قال الثوري عن ابن مسعود قال: يحبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً، وهو قوله: «ثم لننزعن من كل شيعة أبهم أشد على الرحمن حثياً»، وقال قتادة: ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورساهم في الشر، وكذا قال ابن جريج وغير واحد من السلف، وهذا كقوله تعالى: «حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت أحرهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار»، وقوله: «ثم لنحن أهدم بالذين هم أولى بها صلباً»، المراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب كما قال في الآية المتقدمة: «قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون».

**﴿وَلَهُ يَنْكُرُونَ لِآلِ وَرَدَهَا كَانِ عَلَى رُؤُوسِهِمْ مَقْعِبَاتٌ ۖ لَمَّا تَنَبَّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَادَى أَتَلَّيْمِكُمْ فَبَيَّنَّا بَيْنَكُمْ﴾**

روى الإمام أحمد، عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورد، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضهم يدخلونها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا، فليقت جابر بن عبد الله فقلت له: إنا اختلفنا في الورد، فقال: يردونها جميعاً، وأهوى بأصبعه إلى أذنيه، وقال: صُمتنا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً». وعن نيس بن أبي حازم قال: كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته فبكت، فبكت امرأته، قال: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكي فبكت، قال: إني ذكرت قول الله عز وجل ﴿وإن منكم إلا واردة﴾ فلا أدري أنجو منها أم لا، وكان مريضاً<sup>(٢)</sup>. وقال ابن جبر عن أبي إسحاق: كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أُمي لم تلدني، ثم يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أبا ميسرة؟ فقال: أخبرنا أنا واردة ولم نخبر أنا صادرون عنها. وعن الحسن البصري قال، قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا، قال: فقيم الضحك، قال: فما رني ضاحكاً حتى لحق بالله. وقال عبد الرزاق: خاصم ابن عباس نافع بن الأزرق، فقال ابن عباس: الورد الدخول، فقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس ﴿إنكم وما تميلون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ وردوا أم لا؟ وقال: «يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار» أوردهم أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل تخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتشكيبك، فضحك نافع. وقال: عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس فأتاه رجل يقال له أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق.

أرأيت قول الله: ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾، قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسندرها فانظر هل تصدر عنها أم لا؟.

وعن عبد الله بن مسعود ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ قال رسول الله ﷺ: «يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم»<sup>(١)</sup>. وقد رواه أسباط عن السدي، عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال: يرد الناس جميعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كمدو الرجل حتى إن آخرهم مرأ رجل نوره على موضع إبهامي قدميه يمر فيتكأ به الصراط، والصراط دحض مزلة عليه حرك كحسك القناد، حافته ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس<sup>(٢)</sup>، وقال ابن جرير، عن عبد الله قوله ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، تمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمررون والملائكة يقولون اللهم سلم سلم، ولهذا شواهد في «الصحيحين» وغيرهما؛ عن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة، قالت كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة فقال: «لا يدخل النار أحد شهد بدرأ والحديبية»، قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: «ثم نتجي الذين اتقوا» الآية، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحلة القسم» يعني الورود. وقال قتادة قوله: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ هو الحمر عليها. وقال عبد الرحمن بن زيد: «ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها، وورود المشركين أن يدخلوها، والزلازل والزلزلات يومئذ كثير، وقد أحاط بالجسر يومئذ سماطان من الملائكة دعاؤهم يا الله سلم سلم» وقال السدي، عن ابن مسعود في قوله ﴿كان على ربك حتماً مقضياً﴾ قال: قسماً واجباً، وقال مجاهد: حتماً، قال قضاء، وقوله ﴿ثم نتجي الذين اتقوا﴾ أي إذا مر الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من الكفار، والعصاة، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم، فجازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم، وهي مواضع السجود، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم نتجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾.

﴿وَإِن تَلَّ عَلَىٰ عِبَادِهِمُ ابْنُنَا يُوتِنُهُ قَالَ الْوَلِيُّ كَفَرُوا إِيَّاكُمْ فَكُفِّرُوا بِلَدِهِمْ مِمَّا كَفَرُوا وَخِزْيَانُ آلِ عَادَ يَخِزِّيهِمْ خَيْرٌ مِّمَّا كَفَرُوا وَالْحَسَنُ وَآلِهَا ﴿٧٦﴾ وَكَذَلِكَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَوْمٍ مِّثْلِهِمْ لَعَلَّكُمْ أَتَقُونَ ﴿٧٧﴾﴾

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان، أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ أي أحسن منازل، وأرفع دوراً، وأحسن ندياً، وهو مجتمع الرجال للحديث، أي ناديمهم أعمر وأكثر وارداً وطارقاً، يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل؟ كما قال تعالى مخبراً عنهم ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾، وقال قوم نوح: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ وقال تعالى: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾؟ ولهذا قال تعالى، راداً عليهم شبهتهم: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرون﴾: أي

(١) رواه أحمد والترمذي.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

وكم من أمة وقرن من المكذبين، قد أهلكناهم بكفرهم ﴿هم أحسن اثناً ورتياً﴾ أي كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً. قال ابن عباس ﴿خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ المقام: المنزل، والندي: المجلس، والاثن: المتاع، والرتي: المنظر، وهو كما قال الله تعالى ﴿كم تركوا من جنات وهيون ﴿وزروع ومقام كريم﴾ فالمقام المسكن والنعيم، والندي: المجلس، والمجمع، الذي كانوا يجتمعون فيه وقال تعالى فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ والعرب تسمي المجلس النادي، وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة وفيهم قسافة، فعرض أهل الشرك ما تسمعون ﴿أي الفريين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾، ومنهم من قال في الاثان هو المال، ومنهم من قال الثياب، ومنهم من قال المتاع، والرتي المنظر كما قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد. وقال الحسن البصري يعني الصور، وكذا قال مالك ﴿اثناً ورتياً﴾ أكثر أموالاً وأحسن صوراً، والكل متقارب صحيح.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الْعِلْمَةِ قَسِيئَةً أَلَمَّا حَسِبْ لَهُ رَأًأً مَا يُؤْتُونَ إِنَّا الْعَذَابُ وَإِنَّا لَكَاثِمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ لَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنَاكًا﴾ (٧٨)

يقول تعالى ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بريهم، المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل ﴿من كان في الضلالة﴾ أي منا ومنكم ﴿فليمدد له الرحمن مدأ﴾ أي فليمهله الرحمن فيما هو فيه، حتى يلقي ربه وينقضي أجله، ﴿وما العذاب﴾ يصيبه، ﴿وإما الساعة﴾ بغتة تأتيه، ﴿فسيعلمون﴾ حينئذ ﴿من هو شر مكاناً وأضعف جنأ﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندي، قال مجاهد في قوله: ﴿فليمدد له الرحمن مدأ﴾ فليدعه الله في طغيانه، هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير رحمه الله.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدَوْا هُدًأً وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَلَيْهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩)

لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه، وزيادته على ما هو عليه، أخير بزيادة المهتدين هدى، كما قال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هله إيماناً﴾ الآيتين. وقوله: ﴿والباقيات الصالحات﴾ قد تقدم تفسيرها في سورة الكهف ﴿خير عند ربك ثواباً﴾ أي جزاء ﴿وخير مردأ﴾ أي عاقبة ومردأ على صاحبها. عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عوداً يابساً فحط ورقه، ثم قال: «إن قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن، هن الباقيات الصالحات وهن من كنوز الجنة». قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال لأهلن الله ولأكبرن الله ولأسبحن الله، حتى إذا رأي الجاهل حسب أبي مجنون<sup>(١)</sup>.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا لَأَنزَلْنَاكَ إِلَّا رُؤًأً مَّالٍ وَمُلًأً لَّغْوٍ وَإِنَّا لَنَنزِلُكَ إِلَّا تَكْوِينًا مَّوَدًأً وَإِنَّا لَنَنزِلُكَ إِلَّا تَكْوِينًا مَّوَدًأً وَإِنَّا لَنَنزِلُكَ إِلَّا تَكْوِينًا مَّوَدًأً﴾ (٨٠)

روى الإمام أحمد، عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لي على (العاص بن وائل) دين فأتيته أنقاضاً منه، فقال: لا والله لا أفضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ، حتى تموت ثم تبعث، قال: فأني إذا مت ثم بعثت جنتني ولي ثم مال رولد فأعطيتك، فأنزل الله ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا﴾ إلى قوله ﴿وآياتنا فرداً﴾<sup>(٢)</sup>، وفي لفظ البخاري: كنت قيناً بمكة فعملت للعاص بن وائل سيقاً، فجئت أنقاضاً، فذكر الحديث وقال ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال: موثقاً.

(١) روى عبد البرزاق وظاهره أنه مرسل ولكن وقع في سنن ابن ماجه عن أبي سلمة عن أبي الدرداء فذكره وهو حديث مرفوع.

(٢) أخرجه الشيخان والإمام أحمد عن خباب بن الأرت.

وروى عبد الرزاق، عن مسروق قال: قال حباب بن الأرت: كنت قيناً بمكة فكنت أعمل للعاص بن وائل، فاجتمعت لي عليه دراهم، فبحثت لأتقاضها، فقال لي: لا أفضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال: فإذا بعثت كان لي مال وولد، قال: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿فأرأيت الذي كفر بآياتنا﴾ الآيات. وقال ابن عباس: إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون (العاص بن وائل) بدين، فأتوه بتقاضونه، فقال: أستم ترزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى، قال فإن موعدكم الآخرة فوالله لأوتين مالا وولداً، ولأوتين مثل كتابكم الذي جنتم به فضرب الله مثله في القرآن فقال: ﴿فأرأيت الذي كفر بآياتنا﴾ إلى قوله: ﴿ويأتينا فرداً﴾، وقوله: ﴿لأوتين مالا وولداً﴾، فرأ بعضهم بفتح الواو من ﴿ولداً﴾ وقرأ آخرون بضمها وهو بمعناه، وقيل: إن الولد بالضم جمع، والولد بالفتح مفرد، وهي لغة قيس، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿اطلع الغيب﴾ إنكار على هذا القائل ﴿لأوتين مالا وولداً﴾ يعني يوم القيامة، أي أعلم ما له في الآخرة، حتى تآلى وحلف على ذلك ﴿لم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ أم له عند الله عهد مبيّته ذلك؟ وقد تقدم عند البخاري أنه الموثق، وقال ابن عباس: ﴿لم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال: لا إله إلا الله فيرجو بها، وقال القرظي: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿لألم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾، وقوله ﴿كلا﴾ هي حرف ردع لما قبلها، وتأكيدها ﴿سنكتب ما يقول﴾ أي من طلبه ذلك، وحكمه لنفسه بما يتمناه وكفراه بالله العظيم، ﴿ونعد له من العذاب مئداً﴾ أي في الدار الآخرة على قوله ذلك وكفراه بالله في الدنيا، ﴿ورثه ما يقول﴾ أي من مال وولد، نسلبه منه عكس ما قال إنه يؤتى في الدار الآخرة مالا وولداً، زيادة على الذي له في الدنيا، بل في الآخرة يسلب من الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿ويأتينا فرداً﴾ أي من المال والولد، قال مجاهد ﴿ورثه ما يقول﴾: ماله وولده، وقال قتادة ﴿ورثه ما يقول﴾ قال: ما عنده، وهو قوله: ﴿لأوتين مالا وولداً﴾ ﴿ويأتينا فرداً﴾ لا مال له ولا ولد، وقال عبد الرحمن بن زيد ﴿ورثه ما يقول﴾ قال: ما جمع من الدنيا وما عمل فيها، ﴿ويأتينا فرداً﴾ قال: فرداً من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير.

﴿وَالْقَدْوَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْ يَكْفُرُوا لَهُمْ رَبِّ أَعْلَمُ﴾ ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادِهِمْ وَيَكْفُرُونَ عَنْهُمْ وَيَسْلُبُونَ أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَأَرْسَلْنَا السَّيْلِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَذَّعْتُمْ أَنَّا تَوَلَّيْنَاكُمْ﴾ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا بِرَبِّهِمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿وَالْقَدْوَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْ يَكْفُرُوا لَهُمْ رَبِّ أَعْلَمُ﴾ ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادِهِمْ وَيَكْفُرُونَ عَنْهُمْ وَيَسْلُبُونَ أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَأَرْسَلْنَا السَّيْلِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَذَّعْتُمْ أَنَّا تَوَلَّيْنَاكُمْ﴾ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا بِرَبِّهِمْ إِبْرَاهِيمَ﴾

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم، أنهم اتخذوا من دونه آلهة لتكون لهم تلك الآلهة ﴿هزأ﴾ يعتزون بها ويستصرونها، ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ولا يكون ما طمعوا، فقال ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم﴾: أي يوم القيامة ﴿ويكونون عليهم ضداً﴾ أي بخلاف ما ظنوا فيهم، كما قال تعالى: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾، وقال السدي ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم﴾: أي بعبادة الأوثان، وقوله: ﴿ويكونون عليهم ضداً﴾ أي بخلاف ما رجوا منهم. وقال ابن عباس ﴿ويكونون عليهم ضداً﴾ قال: أعواناً، قال مجاهد: عوناً عليهم تخاصمهم وتكذبهم، وقال قتادة: فرأه في النار، يلعن بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم ببعض، وقال الضحاك ﴿ويكونون عليهم ضداً﴾ قال: أعداء. وقوله: ﴿لم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً﴾ قال ابن عباس: تغويهم إغواء، وقال العوفي عنه: تحرضهم على محمد وأصحابه، وقال مجاهد: تشليهم إشلاء، وقال قتادة: ترعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله، وقال سفيان الثوري: تغريهم إغراء وتستعجلهم استعجالاً، وقال السدي: تطغيهم طغياناً، وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: ﴿ومن يحش من ذكر الرحمن نقبض له شيطاناً فهو له قرين﴾، وقوله: ﴿فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم ضداً﴾ أي لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، ﴿إنما نعد لهم ضداً﴾ أي إنما تؤزهم لأجل معدود ومضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله، كما قال تعالى: ﴿نهل الكافرين أمهلهم وروى﴾، ﴿إنما نعلي لهم ليزدادوا إثماً﴾ ﴿نمتهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾. ﴿قل تمتعوا فإن

مصيركم إلى النار» وقال السدي «إنما نعد لهم عذاباً» السنين والشهور والأيام والساعات، وقال ابن عباس: «إنما نعد لهم عذاباً» قال: نعد أنفاسهم في الدنيا.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿وَنَسُوقُ الشَّجِيرِينَ لَكَ جَهَنَّمَ وَفْدًا﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿٩١﴾

بخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله، وصدقوهم فيما أخبروهم وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عما زجرهم أنه يحشرهم يوم القيامة، وفدأ إليه، والوفد هم القادمون ركبناً ومنه الوفود، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه، وأما المجرمون المكذبون للرسول المخالفون لهم فإنهم يساقون عنفاً إلى النار ﴿ورداً﴾ عطاشاً<sup>(١)</sup>، وقال ابن أبي حاتم، عن ابن مرزوق «يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً» قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رأها وأطيبها ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفني؟ فيقول لا، إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن وجهك. فيقول: أنا عملك الصالح وهكذا كنت في الدنيا حسن العمل طيبه، فطالما ركبك في الدنيا، فهلم اركبني فيركبه، فذلك قوله: «يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً»<sup>(٢)</sup>. قال ابن عباس: ركبناً، وقال أبو هريرة «يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً» قال: على الإبل. وقال الثوري: على الإبل النوق، وقال قتادة «يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً» قال: إلى الجنة، عن ابن النعمان بن سعيد قال: كنا جلوساً عند علي رضي الله عنه، فقرأ هذه الآية «يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً» قال: لا والله ما على أرجلهم يحشرون، ولا يحشر الوفد على أرجلهم، ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها، عليها رحائل من ذهب، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة<sup>(٣)</sup>.

وقوله تعالى: «ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً» أي عطاشاً، «لا يملكون الشفاعة» أي ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبراً عنهم: «فما لنا من شافعين ولا صديق حميم»، وقوله: «إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً» هذا استثناء منقطع، بمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحفظها. قال ابن عباس: العهد شهادة أن لا إله إلا الله، وبيراً إلى الله من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله عز وجل. وقال ابن أبي حاتم، عن الأسود بن يزيد، قال: قرأ عبد الله بن مسعود هذه الآية «إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً» ثم قال: اتخذوا عند الله عهداً، فإن الله يقول يوم القيامة: من كان له عند الله عهد فليقم، قالوا: يا أبا عبد الرحمن فعملنا، قال قولوا: اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا، أنك إن تكلمني إلى عملي يقربني من الشر ويباعدني من الخير، وإني لا أئن إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إلي يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. قال المسعودي: وكان يلحق بهن: خائفاً مستنجراً مستغفراً راهباً راغباً إليك.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٩١﴾ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿تَكَادَ السَّمَوَاتُ يَتَّقَنَّ مِنْهُ وَتَسْجُدُ الْأَرْضُ وَجِبْرٌ لِلْجِبَالِ﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿هَٰذَا أَن نَّهْوًا لِلرَّحْمَنِ وَلَٰكِنَّا﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا فِي الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿لَقَدْ أَنصَبْنَا وَعْدَهُمْ عَهْدًا﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ مِنْ يَوْمِ الْوَيْسَةِ فَفَدًا﴾ ﴿٩٨﴾

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً فقال: «وقالوا اتخذ

(١) قاله ابن عباس وعطاءه والحسن وقتادة وغير واحد.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وزاد: عليها رحائل من ذهب وأزمعتها الزيرجد.

الرحمن ولدأ لقد جثتم ﴿ أي في قولكم ، هذا ﴿ شينأ إذا ﴾ ، قال ابن عباس : أي عظيماً ، وقوله : ﴿ تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولدأ ﴾ أي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظماً للرب وإجلالاً ، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده وأنه لا إله إلا هو ، قال ابن جرير ، عن ابن عباس في قوله ﴿ تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ﴾ أن دعوا للرحمن ولدأ ﴿ قال : إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت تزول منه لعظمة الله ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين ، وقال رسول الله ﷺ : « لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله ، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة » ، فقالوا : يا رسول الله فمن قالها في صحته؟ قال : « تلك أوجب وأوجب » ، ثم قال : « والذي نفسي بيده لو رجي بالسماوات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن »<sup>(١)</sup> ، وقال الضحاک ﴿ تكاد السماوات يتفطرن منه ﴾ أي يتشققن فرقاً من عظمة الله . وقال عبد الرحمن بن زيد ﴿ وتنشق الأرض ﴾ أي غضباً له عز وجل ، ﴿ وتخر الجبال هداً ﴾ قال ابن عباس : هدماً ، وقال سعيد بن جبیر : ﴿ هداً ﴾ ينكسر بعضها على بعض متتابعات ، عن عون بن عبد الله : قال إن الجبل لينادي الجبل باسمه : يا فلان هل مر بك اليوم ذكر الله عز وجل؟ فيقول : نعم ويستبشر ، قال عون : لهي للخير أسمع ، أيسمع الزور والباطل إذا قيل ولا يسمع غيره؟ ثم قرأ ﴿ تكاد السماوات يتفطرن منه ﴾<sup>(٢)</sup> الآية وعن أبي موسى رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أن يشرك به ويُجمل له ولد ، وهو يعافيههم ويدفع عنهم ويرزقهم » ، أخرجه في «الصحيحين» . وفي لفظ : «إنهم يجعلون له ولدأ وهو يرزقهم ويعافيههم» . وقوله : ﴿ وما ينمي للرحمن أن يتخذ ولدأ ﴾ أي لا يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته ، لأنه لا كفه له من خلقه ، لأن جميع الخلائق عبيد له ، ولهذا قال : ﴿ إن كل من في السماوات والأرض إلا آت الرحمن عبداً ﴾ لقد أحصاهم وعدهم عدأ ﴿ أي قد علم عددهم ، منذ خلقهم إلى يوم القيامة ، ذكرهم وأنشاهم وصغيرهم وكبيرهم ، ﴿ كلهم آتية يوم القيمة فردأ ﴾ أي لا ناصر ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له ، فيحكم في خلقه بما يشاء ، هو العادل الذي لا يظلم مقال ذرة ولا يظلم أحداً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾<sup>(١٦)</sup> ﴿ إِنَّمَا يَسْتَرْفِعُ بِطَّيْلَتِكَ يُنْفِرُ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُذِرُ بِهِ قَوْمًا لَّهُمْ أَهْلُكُنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ هَلْ يُحِشُّ بِإِثْمِهِمْ مِنَ السَّمَاءِ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكَاةً ﴾<sup>(١٧)</sup> .

يخبر تعالى أنه يفرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة ، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه فروى الإمام أحمد عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل ، فقال : يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه . قال . فيحبه جبريل ، قال : ثم ينادي في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبه » ، قال فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل ، فقال : يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه ، قال فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، قال ، فيبغضه أهل السماء ، ثم يوضع له البغضاء في الأرض<sup>(٣)</sup> وعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن العبد ليلمس مرضاة الله عز وجل ، فلا يزال كذلك ، فيقول الله عز وجل لجبريل إن فلاناً عبدي يلتمس أن يرضيني ألا وإن رحمتي عليه ،

(١) هكذا رواه ابن جرير ويشهد له حديث البطاقة والله أعلم .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد ، واللفظ لأحمد .

فيقول جبريل: رحمة الله على فلان، ويقولها حملة العرش ويقولها من حولهم، حتى يقولها أهل السماوات السبع، ثم يهبط إلى الأرض<sup>(١)</sup> وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: وإذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحببت فلاناً فأجبه فينادى في السماء ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِدًّا﴾<sup>(٢)</sup>. وقال ابن عباس: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِدًّا﴾ قال: حباً، وقال مجاهد عنه ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِدًّا﴾ قال: محبة في الناس في الدنيا. وقال سعيد بن جبيرة: يحبهم ويحبهم يعني إلى خلقه المؤمنين، وقال العوفي، عن ابن عباس: الود من المسلمين في الدنيا، والرزق الحسن واللسان الصادق، وقال قتادة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِدًّا﴾ أي والله في قلوب أهل الإيمان، وذكر لنا أن مريم بن حيان كان يقول: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم، وقال قتادة: وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: ما من عبد يعمل خيراً أو شراً إلا أكساه الله عز وجل رداء عمله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسِرُنَا﴾ يعني القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾: أي يا محمد وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل، ﴿أَنبَشِرُ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ أي المستجيبين لله المصدقين لرسوله، ﴿وَتَنْذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾: أي عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل، وقال مجاهد ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾ لا يستقيمون، وقال الثوري، عن أبي صالح ﴿وَتَنْذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾: عوجاً عن الحق. وقال الضحاك: الألد الخصم، وقال القرظي: الألد الكذاب، وقال الحسن البصري ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾ صمماً، وقال غيره: صم آذان القلوب، وقال ابن عباس ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾: فجاراً، وكذا روي عن مجاهد، وقال ابن زيد: الألد الظلوم، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ﴾، وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾: أي من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿هَلْ تَحْسَبُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٌ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾: أي هل ترى منهم أحداً أو تسمع لهم ركزاً. قال ابن عباس وأبو العالية وعكرمة: يعني صوتاً، وقال الحسن وقاتدة: هل ترى عيناً أو تسمع صوتاً، والركز في أصل اللغة: هو الصوت الخفي، قال الشاعر:

فتوجست ركز الأنيس فراعها  
عن ظهر غيب والأنيس سقاها

[آخر تفسير سورة مريم. والله الحمد والمنة]



(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) رواه مسلم والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح.